التعريف والنقد

ابن الجوزي وكتابه ذم الهوى[1]

المستشرق الألماني شتيفان ليدر

الأستاذ الدكتور محمد كامل عياد

من براعة الاستهلال أن المستشرق الألماني (ليدر) بدأ دراسته بترجمة فصل طويل من رحلة (ابن جبير) قبل أن يذكر شيئاً عن كتاب (ذم الهوى) ومؤلفه (ابن الجوزي) . كان (ابن جبير) قد هاجر هارباً من بلده (غرناطة) التي أرغمه ملكها على احتساء الخمرة في مجلسه ، فتوجه الى مكة للحج ثم تابع رحلته حتى وصل الى (بغداد) في شهر صفر سنة (٥٨٠ هـ / أيار ١١٨٤ م) .

يذكر (ابن جبير) أنه حضر اجتماعاً عقده الواعظ (ابن الجوزي) في الساحة أمام قصر الخليفة حيث كان مسموحاً له وحده بالخطابة والموعظة كل يوم خميس وحيث كان يمكن للخليفة وأهل بيته الاستماع اليه من مناظير (شرفات) القصر .

وقد وصف (ابن جبير) تزاحم الجمهور مبكراً على احتلال أمكنة قريبة من المنبر فكانوا يدفعون المال لذلك ثم ينتظرون طويلاً وصول

● وجدت هذه المقالة مسودة بين أوراق الأستاذ الدكتور محمد كامل عياد رحمه الله وأسبغ عليه رضوانه .

(١) المجلد (٣٢) من سلسلة (نصوص ودراسات بيروتية) التي ينشرها المعهد الشرقي لجمعية المستشرقين الألمان ـ بيروت ١٩٨٤ م (٣٢٨ صفحة) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الخطيب الواعظ ، في حين كان يجلس القراء في صفوف على مقاعدهم لترتيل القرآن حسب ترتيب مرسوم . وعندما ساد الخشوع السامعين وظهرت الرهبة عليهم حتى صار بعضهم يسكب الدموع ، صعد (ابن الجوزي) المنبر فنزع الطيلسان عن رأسه وبدأ بمدح الخليفة ووالدته والدعاء لهما ، ثم اندفع في خطابه وموعظته مستشهداً بآيات من القرآن الكريم وأحاديث نبوية وأبيات من شعر الزهاد .

وقد أبدع (ابن جبير) في وصف تأثير الخطاب في جمهور الحاضرين الذين أجهشوا بالبكاء وأخذوا يصرخون اعترافاً بذنوبهم وطلباً للتوبة . ثم أضاف (ابن جبير) قائلاً : « وما كنا نحسب أن متكلماً في الدنيا يُعْطَى من ملكة النفوس والتلاعب بها ماأُعطي هذا الرجل »[٢] .

☆ ☆ ☆

من الواضح أن الباحث الألماني (ليدر) ، مثل غيره من المستشرقين في السنوات الأخيرة ، إنما قصد بدراسته عن (ابن الجوزي) الاشارة الى أهمية الحركات الدينية في بلاد الشرق وعلاقتها بالحوادث السياسية الحاضرة . لذلك انتقل الى استعراض سيرة هذا الواعظ المشهور وموقفه من عصره .

ولد (ابن الجوزي) في بغداد سنة (٥١١ هـ ـ ١١١٧ م) ، ومات أبوه وهو طفل ولم تلتفت والدته اليه ، فلما ترعرع حملته عمته الى خاله (أبي الفضل بن ناصر) الذي كان معروفاً بتعليمه القرآن والحديث فأشرف

---

(٢) شهد ابن جبير مجلس ابن الجوزي بكرة يوم الخميس الحادي عشر من شهر صفر سنة ٥٨٠ هـ . وكان الخليفة العباسي الناصر لدين الله الذي ولي الخلافة (٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على تنشئتـه وأرشـده الى كثير من العلمـاء المشهورين ، وانصرف (ابن الجوزي) كلياً الى طلب العلم ، واتجه بـالأخص الى الوعـظ ، وبرهن على مهارته منذ شبابه ، وقد نشر عدة مجموعات من المواعظ . كـذلـك شـارك في مختلف فروع العلم من تفسير وحـديث وفقـه ولغـة ، واشتهر كتـابـه (المنتظم في تـاريخ الملوك والأمم) الـذي أصبح مصـدراً لأكثر المؤرخين من بعـده . كما ألف في موضوعـات متنـوعـة مثـل (أخبـار الأذكيـاء) و (أخبـار الحمقى والمغفلين) و (أخبـار الظراف والمتمـاجنين) و (أحكام النساء) و (فضائل القدس) و (مناقب بغداد) و (نقد العلم والعلمـاء) و (الطب الروحـاني) و (تلبيس ابليس) و (صيـد الخـاطر) . وبلـغ عدد كتبه المطبوعـة أكثر من ثلاثين ، ولـه كتب كثيرة مـاتزال مخطوطـة يذكر هو نفسه أنها تزيد على (١٣٠) كتاب .

☆ ☆ ☆

عـاش (ابن الجوزي) في عصر مضطرب ، وقـد سـادت الفـوضى في (بغداد) حيث كان الخلفاء العبـاسيون لايملكون شيئـاً من السلطـة بعـد استئثار سلاطين السلاجقـة بـالحكم . على أن سطوة السلاجقـة أخـذت في منتصف القرن السـادس الهجري تضعف وتنهـار بسبب الاختـلافـات والتنـازع بين أفراد الأسرة المـالكـة ، فـانـدلعت الحرب بين السلطـان (مسعود) حفيد السلطان (ملكشاه) وبين عمه السلطان (سنجر) .

وكان امراء الجند السلاجقة المنقسمون بعضهم ضد الآخر والمتنـافسون على الحكم يضطهدون جماهير الشعب ، وينهبون أموال الناس ، ويوفـدون الى مقر الخلافة الانصار والدعـاة للخطـابـة والوعـظ واثـارة الفتن وبلبلـة الأفكار . فقـام (ابن الجـوزي) يهـاجم هـؤلاء العمـلاء ويتهم الفقهـاء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المعارضين بالجهل والنفاق والسفسطة ، وينتقد بشدة شذوذ المتصوفة ويستنكر خروجهم عن حدود الشرع ، وخصص كتابه (تلبيس ابليس) لفضح أساليبهم في الشعوذة . وقد اكتسب (ابن الجوزي) الكثيرين من الأعداء بسبب تهجمه على الناس .

كان (ابن الجوزي) يتعصب للمذهب الحنبلي الذي يتمسك بمبادئ أهل السنة ، ويتقيد بأحكام القرآن و الأحاديث الصحيحة ، ويعارض أقاويل علماء الكلام المتضاربة ، وبدع المتصوفة المتحذلقين . وكان عنيفاً في مهاجمة المخالفين حتى نقم عليه بعض شيوخ الحنابلة أنفسهم ، واتهموه بالميل الى التأويل في كلامه ، وبالاضطراب والتناقض في كتبه التي كان ينشرها بسرعة دون مراجعة كافية ..

☆ ☆ ☆

ركز المستشرق (ليدر) اهتمامه على فترتين من حياة (ابن الجوزي) بلغ فيهما الذروة من الشهرة العلمية والمكانة السياسية :

١ ـ كان (ابن الجوزي) صديقاً للوزير (يحيى بن هبيرة) منذ كانا رفيقين في دراسة الحديث على العالم (أبي الحسن الزاغوني) . وقد أظهر (ابن هبيرة) مهارة فائقة عندما ثار أمراء الجنود السلاجقة ، وهددوا بمهاجمة بغداد في سنة (٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م) ، فرفض التفاوض معهم ووقف الى جانب السلطان (مسعود) الذي وافق مقابل ذلك على تكوين جيش خاص بالخليفة (المقتفي) .

وقد اتفق (ابن الجوزي) مع صديقه الوزير (ابن هبيرة) على دعوة جمهور الشعب الى الالتفاف حول الخليفة ، والسعي للتحرر من حكم السلجوقيين الغرباء ، فقد كانت أكثرية السكان في (بغداد) اذذاك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يتبعون المذهب الحنبلي ، ويعتنقون عقيدة أهل السنة ويكرهون جنود السلاجقة الذين ينهبون أموال الناس .

ولتقوية سلطة الخليفة وتوطيد مكانته انتهز (ابن هبيرة) موت السلطان (مسعود)[٣] ، فقام على رأس جيش الخليفة واستولى على مدينتي (الحلة) و (واسط) .

٢ ـ أما الفترة الثانية التي برز فيها (ابن الجوزي) فإنها تبدأ مع خلافة (المستضيء) في سنة (٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م) . وقد سبقت الإشارة الى أن هذا الخليفة كان يستمع دوماً الى خطب (ابن الجوزي) ومواعظه من شرفة القصر . فكان طبيعياً أن يسترشد بآراء (ابن الجوزي) في منهاجه السياسي . وفي الواقع اتبع (المستضيء) الخطة التي سار عليها (ابن هبيرة) في عهد (المقتفي) فأخذ يساند أهل السنة ويقدم مساعدات كبيرة الى مدارسهم وبالأخص مدارس الحنابلة . وقامت (بنفشة بنت عبد الله الرومي) زوجة الخليفة بتمليك مدرسة خاصة للحنابلة بادارة (ابن الجوزي) وأمرت بوضع لوحة نقش عليها اسم (ابن الجوزي) بوصفه (إمام الحنابلة) .

كان (المستضيء) يؤازر رجالَ العلم من خطباء وواعظين لاستمالة الرأي العام وكسب تأييد جماهير الشعب في مقاومة قائد الحرس التركي (قايماز) الذي كان يسيطر على قصر الخليفة .

وهكذا عندما تدفق جمع غفير من سكان (بغداد) لسماع خطبة (ابن الجوزي) انتهز الخليفة الفرصة فصعد الى سطح القصر وأخذ يحرض ويدعو بأعلى صوت الى التخلص من استبداد (قايماز) فاستجاب جمهور

---

(٣) مات السلطان مسعود أول رجب سنة ٥٤٧ هـ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الشعب إلى هذا النداء واندفع بحماسة إلى مهاجمة قصر القائد التركي الذي هرب من بغداد مع اتباعه[٤] .

وبفضل دعاية (ابن الجوزي) ازدادت مكانة (المستضيء) وذاعت شهرته في العالم الاسلامي مما دفع السلطان (صلاح الدين الأيوبي) ، الذي قضى على حكم الفاطميين في مصر ، الى أن يأمر في سنة (٥٦٧ هـ / ١١٧١ م) بأن تقرأ الخطبة في المساجد باسم هذا الخليفة العباسي .

بعد موت المستضيء (٥٧٥ هـ) ظل (ابن الجوزي) يخطب في قصر الخليفة مدة من الزمن . إلا أن نفوذه أخذ يتضاءل في عهد (الناصر) . بل انه مع تقلب الظروف وتعاقب مختلف الوزراء تعرض عدة مرات الى النفي والسجن . ولكن صفح عنه في الأخير واستقبل بمظاهر الحفاوة والتكريم عند عودته الى (بغداد) في سنة (٥٩٥ هـ) حيث مات بعد سنتين فخرج جميع السكان في جنازته ودفن الى جانب الإمام (أحمد بن حنبل) .

☆ ☆ ☆

إن كتاب (ذم الهوى) للواعظ (أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي) عبارة عن مجموعة من الأحاديث النبوية وأقوال الصالحين وأخبارهم ، وجملة من الآراء والمبادئ الأخلاقية ، وشروح العلماء للعشق مع بعض التعليقات من حين الى آخر ثم أضيف اليها عدد كبير من القصص وروايات الحب والعشق .

وقد تبين للمستشرق (ليدر) ، بعد التقصي ، أن مقدار العشر فقط ضمن محتويات الكتاب هو من الكلام الذي سجله (ابن الجوزي) ذاته

(٤) كان هرب قايماز من بغداد سنة ٥٧٠ هـ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في حين أن التسعة أعشار الباقية قد جمعها نقلاً عن الآخرين . ويلاحظ أنه قد أهمل بين مصادره بعض المؤلفات الهامة التي تناولت موضوع الحب والعشق بالشرح والتحليل مثل كتاب (الزهرة) لأبي بكر بن داود أو كتاب (طوق الحمامة) لابن حزم الأندلسي . على العكس من ذلك اتجه اهتمامه خاصة الى كتاب (اعتلال القلوب) للخرائطي وكتاب (مصارع العشاق) للسراج ، اللذين يتميزان بالتحذير من العشق ومساوئه ، وكانا يتناقلان في مجالس المحدثين .

كان (ابن الجوزي) يسير على طريقة علماء الحديث في الاسناد ومتابعة سلسلة الرواة . وقد أحصى الباحث (ليدر) في كتاب (ذم الهوى) حوالي (١٠٥٠) حديثاً وخبراً نقلها (ابن الجوزي) بأسانيدها الكاملة ، وأمكن اثبات صحة أكثرها بعد تصنيفها وفحصها في القسم الثاني من الدراسة (٧٠ صفحة) .

واهمال (ابن الجوزي) الاستفادة من بعض الكتب القيمة المشهورة مثل كتاب (الأغاني) يرجع سببه الى أن رواياتها ليست منقولة بطريقة علم الحديث .

يقسم (ليدر) المأثورات التي نقلها (ابن الجوزي) الى نوعين : (١) أخبار الصالحين و (٢) قصص العشاق . وقد اقتبس أحاديث الصالحين وأقوالهم في الزهد من كتاب ألّفه هو سابقاً بعنوان (صفة الصفوة) ، وترجم فيه للعُبّاد المشهورين بنسكهم ، كما اعتمد على مجموعتين كبيرتين من كتب التراجم هما : (حلية الأولياء وطبقة الأصفياء) لأبي نعيم ، و (طبقات الصوفية) للسلميّ .

ويستدلّ الباحث الألماني من ذلك أن (ابن الجوزي) لم يرفض التصوف مطلقاً عندما انتقد بشدة مذاهب الصوفية المتطرفة ، إنما كان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يدعو الى الاقتداء بالعُبّاد الصوفيين الذين عاشوا في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة ، واشتهروا بصلاحهم ونسكهم . وخلافاً لما عُرف عن الحنابلة من التزمت والتشدد فقد كان هو نفسه يميل الى الاعتدال في العبادة والنسك ، ويذكر المترجمون لحياته أن له بعض المجون اللطيف والمداعبات الحلوة ، وأنه كانت لديه حتى بعد الثمانين من العمر جارية حسناء لايطيق الابتعاد عنها . وفي مقدمة كتابه (ذم الهوى) يعتذر عما أورده من جرائم العشق وأخباره الشاذة مخاطباً القارئ بقوله : « واعلم أني قد نزلتُ لأجلك في هذا الكتاب عن يفاع الوقار الى حضيض الترخص فيما أورد .... » .

وقد استغرب (ليدر) كثرة القصص والروايات التي تتناول الحب والعشاق ، والتي تنافي أخبار الزهد والتقوى ، كما لاحظ أن ابن الجوزي في مواعظه ينشد الكثير من شعر النسيب ، حتى يثير الوجد لدى جمهوره ، وأن هناك تناقضاً بين عنوان كتابه في (ذم الهوى) وبين مايبديه من عطف في معالجة موضوع العشق . وقد خصص (ابن الجوزي) بابا طويلاً للعشاق الشعراء في العصر الأموي ، وبالأخص (العشاق العذريين) الذين اشتهروا بالعفة والإخلاص ، وتحمل الشقاء حتى الهلاك . بل انه روى عن طرق مختلفة حديثاً نبوياً يقول : « من عشق وعفّ ومات ، مات شهيدا » . يقول (ليدر) : والثابت أنه حديث موضوع ، ومن الأرجح أن (ابن الجوزي) نقله على الرغم من علمه بذلك ، لاكمال مجموعة من المأثورات في الحب .

☆ ☆ ☆

ان موضوع كتاب (ابن الجوزي) هو (الهوى) بمعنى الرغبة والشهوة أولاً ، ثم العشق أو الغرام بمحبوب لايمكن الوصول اليه ثانياً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لقد بحث (ابن الجوزي) في ماهية العشق وحقيقته ، فنقل أقوال حكماء الأوائل من افلاطون الى فيثاغورس في ذلك ، وآراء بعض العلماء المسلمين . وعقد فصلاً في مراتب العشق من مودة ومحبة وصبابة وجوى ولوعة وشغف ووَلَهٍ وتتيم . وذكر أسبابه وحكمه من الناحية الأخلاقية . ومعنى العشق عنده هو الغرام المخلص العفيف الذي يعرّفه بقوله : انه شدة ميل النفس الى صورة تلائم طبعها . ثم يقول : إن العشق الذي يزيد على حد الميل والمحبة فيملك العقل فذلك مذموم ، لأنه أثر غلبة النفس الشهوانية .

وقد جمع (ابن الجوزي) في هذا الكتاب الضخم الذي يبلغ عدد صفحاته (٧٢٨) صفحة مادة غزيرة عن الهوى . ولكنه لم يحاول معالجة الموضوع من الوجهة الفلسفية ، لأن ثقافته كانت بعيدة عن هذا المنحى ، فاقتصر على اقتباس بعض المفاهيم والمبادئ النفسية والأخلاقية عن كتاب الطب الروحاني لأبي بكر الرازي ، وكتاب احياء علوم الدين للغزالي ، وكتاب الفنون لابن عقيل دون ذكر أسمائها بين المصادر ، لأن قواعد نقل الحديث لاتطبق عليها .

وهكذا نراه ينقل أقوال حكماء الأوائل عن قوى النفس الثلاث ، ويستعين بها عندالبحث في ماهية العقل وفضائله في اكتساب المعرفة والتغلب على الأهواء . وتابع رأي (الرازي) في بيان علاقة الهوى بطبيعة الإنسان ، والتحذير من التمادي في الشهوات التي يؤدي ادمانها الى الهلاك .

على أن (ابن الجوزي) لا يعتمد في نظرته الى (الهوى) إلا على آيات القرآن والأحاديث النبوية وأقوال الصالحين ، ويقول ان الإنسان لايستطيع التغلب على النفس (الأمارة بالسوء) إلا بالمجاهدة المستمرة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والصبر .

يستند (ابن الجوزي) في نظريته الأخلاقية الى مبدأ الثنائية بين طبية الإنسان السفلى التي تربطه بالحيوان وبين قدرته العليا الداعية الى العبادة . وإذا كانت هذه القدرة تتجلى في الفضائل الثلاث : العقل والعلم والعمل فالقوة المضادة هي الغريزة التي تدفع الى اتباع الهوى ..

ويذهب (ابن الجوزي) الى أنه يمكن أي انسان أن يقع في الهوى أو يصاب بالعشق ، ولكن في مقدرته أيضاً مقاومة ذلك والشفاء منه . وهو يرى أن مهمة الواعظ تماثل مهمة الطبيب . وقد خصص باباً لذكر أدوية العشق ، فتحدث عن طرق الوقاية لاجتناب أسباب المرض ، وعن أساليب المعالجة عند الإصابة به . ويقول : ان علاج المرض في بدايته أسهل منه بعد تمكّنه . وأفضل وسيلة للوقاية في رأيه هي الزواج الشرعي في سنّ مبكرة ، كما ينصح بالزواج أو التسري في جميع الحالات إذا أمكن ذلك . وهو يصرح بأنه لايدعو الى تغيير الطبيعة البشرية ، وإنما يسعى الى بيان الأسباب التي تضعف العشق وتوهنه ، والتحذير من العوامل التي تزيده قوة . ويلخص مهمته مخاطباً القارئ : « فأنا أعرفك السبب الذي يضعف العشق ويوهنه ، وأحذرك من السبب الذي يزيده قوة . فما قلت لك : امنع النار أن تحرق ، وإنما قلت : أطفئها . ولا قلت : ادفع الماء عن أن يغرق وإنما علمتك السباحة » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net